

القصص

فصل سابعة رابعة

الجنونة

للاستاذ علي الطنطاوي

قالت ربة المنزل ، وقد حفت بها اولادها واحفادها ، وجلسنا نحن على مقعدين نصوبهما لنا في صدر الغرفة :
اصغوا الى فاني قاصة عليكم الليلة قصة واقعة . شاهدت حوادثها بعيني رأسي . ولا يزال اشخاصها احياء يرزقون ، وليس كل ما يمتاز به انها واقعة ، ففي الواقع كثير من التوافه ، ولكنها تمتاز بأنها مؤثرة وان فيها عبرة .

كنت صغيرة . لا أكاد أدرك ...

— إذن فالقصة منذ ستين سنة على الأقل !

فرمت المرأة صديق بظرة تأنيب على هذه الالهانة التي تلقاها

على أن هذه اختلالات لا تؤثر في حوائج العلم العادية ، ومطالب الحياة الجارية ، فعين الانسان قاصرة ، ترى الكون كتلا كبيرة ولو ظننتها جسيمات صغيرة ، ويده تحس الكون كذلك كتلا ، وأنه يشم الكون اجمالا لا تفصيلا ، وأذنه تسمع انغامه وتظن انها تستطيع ادراكها نغمة نغمة ، ولو ان كل نغمة منها انغام تحتوي انغاماً ، وهو مستمتع في كل هذا بقصور حواسه ، قانع برؤية الوجود غبشا وضبابا ، مادام لا يحس أنه غبش وضباب ، فلنفس ما كان من تحقيق العلماء وتدقيقهم ، ولشربه زلالا سائغا خفيفه وثقيله ، وعلى الدنيا وعلى العلماء العفاء .

أحمد زكي

بها ، واستمرت في حديثها :

... كنت بنت سبع سنين يوم دخل «رظا» افندي البلد . وإني لأذكر ذلك بوضوح على رغم طفولتي وقدم العهد ... لأن بلدنا كان يومئذ معتزل العالم ، وكان مرور الجند في البلد . أو زيارة غريب أو سفر أحد الفلاحين الى دمشق . يعد حادثا تاريخيا يلجج به الفلاحون شهورا . ويتخذون منه مادة لاحاديثهم في أسفارهم ، وكان اليوم جمعة فلم يرع الناس وهم منصرفون من الصلاة الا شبح شخص يلوح في الحرة (١) المحيطة بالبلد ، ثم يبدو واضحاً وأذا هو رجل طوال منحني يسلك يمينه عصا طويلة قد علق بها صرة كبيرة ، ويجر يسراه طفلة له ، وكانا يجدان غنا في تعلق هذه الصخور والفقر على هذه الاحجار السوداء . الحديدية الجوانب ، حتى أن الطفلة سقطت أكثر من مرة . فكان الرجل يقيها ، ويصب في أذنها كلمات حلوة معسولة ، ويشيرها الى البلد ، فتعاود المسير بحفاها أمل بارق ، في ظلام من اليأس تجمع الناس في رجة البلد ، ينظرون اليهما ، وتطوع فريق منهم للاخذ بايديهما ومساعدتهما ، وأخذ رجل حماره ليركبهما ، وبعد آخر الى شيء من الخبز والجبن وقر الدين فاخذه اليهما زاعما انما قد حطهما الجوع ، وحملت امرأة حرة ما . مؤكدة أن ليس بهما جوع ولا تعب ، ولكن الضرب في هذه الحرة المحرقة ثلاث ساعات من الكسوة الى زاكية ، ثلاث ساعات في هذه الظهيرة اللاذعة قد قتلها عطشا

ولم تفسأ المخدمة أن تفلت هذه المناسبة دون أن تعظ اولادها وتصف لهم جلال الاخلاق الماضية وجمالها فقطعت قصتها وقالت :
— أرايتم ؟ هكذا كان الناس : يساعدون الغريب ويرأسونه بنفوسهم ، لا كما تصنعون اتم اليوم

— فقلت : ولكن الرجل ؟ هل أكل ما حملوا اليه من طعام ؟
— قالت : كلا ، كان مريضا فلم يأكل شيئا . أما البنت فقد كانت ساغبة لاغبة ، فأكلت وشربت ثم نامت مكانها من التعب .

(١) الحرة ارض ذات حجارة سوداء . بركاية وقرية زاكية الحورانية التي تحدث عنها في وسط حرة

ساعتين او ثلاثا تنقز فيها كما يقفز الغزال الشارد ، كأن لها خفته وملاحته .

وكانت غريبة في طباعها وأخلاقها ، كما كانت غريبة في شكلها وصورتها ، فلما اكتملت انوثتها وتفتحت زهرة الحب في قلبها ، لم تجد لها قاطفا ، إذ لم يكن في الناس من يمرؤ على الزواج بفنائه لقيطه لانعرف اسرتها ولا يعلم نسبا ، فضلا عن انها تقرأ ، وانها قد قرأت كل ما كان مع أبيها من كتب وحفظت ما فيها من كبر وترهات

كانت الفتاة تعود الى البيت حينما تعود الشمس الى خدرها ، فعلا البيت طربا ومرحا ، فلما كان ذلك اليوم الذي قلب عليها حياتها ، لم تعد الا في ظلة الليل ، وكانت تهبط الصخر بمحذر تحمل شيئا ثقيلا حتى بلغت الدار فولجتها وقد انهكتها التعب ، ولكنها كانت هاشة باشة ككل فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، فوضعت حملها برفق على احدى الارائك ، وقالت لامها في سداجة :

— هاك زوجي اوجدته طريقا عند الصخرة الشرقية . وقد أغشى عليه من هذا الجرح ، ستعنين به أجمل عناية حتى اذا ماشى تزوج في .. أليس كذلك ؟

فهزت المرأة رأسها وقد حدثها قلبها وقلب المرأة (ترمومتر) الحياة — بكارته ، ولكنها لم تجد مجالا للقول فانصرفت الى العناية بالجريح . وكان ضابطاً ألمانيا جيلاً قد خرقت صخرة قذالة وشجته شجاً عميقاً . ودعت المرأة زوجها فشرع يعالجه بالبسم والحراقة وماليها من الطرق البدوية التي قلما تخطئ في مثل هذه الحالات . والفتاة متعلقة به تسأله عن مبلغ الأمل في شفائه ، ووترجوه ألا يدخر وسعاً في معالجته ، لانها تود شفائه ليكون لها زوجاً ، ولما تمت العملية ألقت المريض على سريرها . والحت على الرجل وزوجه أن يساعدا خدمته لها . فعلا

جث أمام السرير كما يجثو العابد في صلاته . وراحت تأمل وجهه وعينه المغمضتين في دھول عميق ونشوة غريبة . وتجرؤ أحيانا على مس شعره الأشقر المتهدل على العصابة مساً رقيقاً ، كما لمس المرء شيئا يقده ويخشاه ثم تقبض يدها في سرعة ..

— نديدة انديدة !

— نعم يا بابا

— ألم تنامي بعد ؟ دعى المريض فانه لن يفيق من غيبوبته قبل الصباح

— نعم . سأنام

ولكنها لبثت نجائية أمام السرير

حملوا الرجل وابته الى دار الشيخ ، وكان المرض والضعف قد بلغا بالرجل . فارادوه على الطعام ليشتد أزرد فأبى . فعرضوا عليه الدواء الذي يتخذونه لئلا يعلته فرفض ايضا : — لا اريد . لا اريد شيئا . لا تفكروا لي . اني ميت . قد انتهيت ، ولكني موصيكم بهذه الطفلة فهي أمانة في اعناقكم . لقد غالب الموت حتى بلغت بها هذه القرية ، قد حملتها فوق ما يطيقه انسان ، لقد جابت معي البلاد كلها من القسطنطينية الى هنا ، من القسطنطينية الى زاكية في ست سنين لم نذق فيها ليلة هناء واحدة .

وأطبق عينيه وفه . وسكت ، وحاولوا ان يفهموا منه شيئا آخر فلم ينس . واعتبرته حال غريبة لم أكن أعرف يومئذ ما هي ، ولكنني فهمت منها ، ومن صوت الرجل الذي خرج خافئا رهيبا كأنه خارج من قبر ، ومن وجهه الشاحب الخفيف ، وأنفاسه المتقطعة ولهجته الغريبة ، إنه ليس كمن أرى من رجال ، وإن له لسانا ... ولكنني لم أستطع البقاء أكثر مما بقيت فعدت الى الدار كيلا تضربني أمي

وفي الصباح سمعت أن الغريب قد مات — مات ليلة قدمه كأنما قد طوف في بلاد الله هذا الطواف لينام الى الابد على هذه الحجارة السوداء ، ويستمتع بحلم طويل إثر رحلة شاقة !

*

بقيت الطفلة وحيدة فكفلتها زوجة شتيوى ، وكان شتيوى من شيوخ البدو المقيمين في هذا البلد . وكان غنيا موسراً ، ولكن زوجه عاقر لم تأت به ولد طيب صالح يعلله القرومية والرمي ، ويستخلفه في أهله وماله ، على الرغم من أنها راجعت الاطباء والمنجمين والمشايخ والمشعوذين في دمشق وفي قننا ، واصطنعت عشرات الادوية والتأائم فلم ينفعها ذلك كله فيلما . فيئست ... ولما كفלוها هذه الطفلة تلقتها بسرور . واتخذتها ابنة لها ...

كانت الطفلة في التاسعة من عمرها يوم مات أبها . فلم تلبث في بيت شتيوى سنين حتى نمت واكتملت ، وغدت أجمل فتاة في البلد ، ولكنها كانت غريبة عن نساء البلدة فهي شقراء ، لها عيان زرقاوان ، وجسم متناسق جميل ، كأنما هي احدى الفتيات اليونانيات اللاتي عرفناهن في حي المهاجرين في دمشق

— بل كأنما هي ديان ، غادية الى الصيد !

— وكانت تجول كل يوم في هذه الصخور ، لا كما يجول نساء دمشق اذ يمشين مطاطات متكسلات نصف ساعة في طريق المنشية ، أو في شارع بغداد ، ثم يعدن في عربة ، بل كما يجول الراعي النشيط

هذه الصلة بينهما من غير أن تخلف وراها قلباً دامياً . فلم يقد ذلك شيئاً ، وازداد حب الفتاة اضطراباً . فأزعم السفر مضطراً وأزف الوداع فتعلقت به وأبت أن تفارقه . وأعرضت عن كل نصيحة ، ولم تنفع فيها موعظة ولا زجر . فاقربت زوجة شتيوى من الضابط وهمت في أذنه كلاماً فعاد طلقاً مستشراً . فأمسك يدي الفتاة بخنوق وقال لها :

— سأعود لأزوجك . فدعني أذهب لأعد عدة الزواج . سأعود ... فتركته الفتاة مصدقة ووقفت على الصخرة التي لقيته عندها تبكي وتشير إليه بمدبليها حتى اختفى . فعدت إلى البيت تقول لأمها :

لقد وعدني أن سيعود . سيزوجني !

— نعم سيعود !

مر شران تصرّم فيهما صبر الفتاة . فكانت تمضي نهارها حيايل خريطة قديمة كانت بين كنب أبيها تنظر فيها . وتحاول أن تعرف أين تقع ألمانيا من وجه الأرض ، وكم هي المسافة إليها . ولكنها لم تكن تعرف شيئاً عن البحار ولا عن الوسائط النقلية . فكانت تصوراتها لا تعدو أن تكون أحلاماً مبهمه . وكانت تبكي بكاء خافاً وهي مكبة على الخريطة ، وتستعيد في نفسها صورة الضابط وصوته وحركاته . ثم تعاود البكاء والنديج ، أما هو فقد نسيها . ولم يذكر اسمها إلا مرة واحدة . في كتاب أخرجه عن الشرق .

وقطعت المرأة حديثها لأن الباب قد انفتح عن عجز منحنية على عصا طويلة تصرخ صراخاً مزعجاً . وتهذى بكلمات مبهمه . ووراءها سرب من الصبيان يقرعون بأيديهم الحجارة . ويصيحون مع ... مع ... مجنونة ! مع ... مع ... مجنونة ! فلما نجت منهم ، ألقت بنفسها على عتبة الباب ، وجلت تبكي بكاء ألياً ...

فهمست في أذن ربة الدار :

— من هذه المجنونة ؟

— إنما صاحبة القصة ياسيدي !

على الطنطاوى

دمشق

لبث الرجل وزوجه ينصحانها . يحاولان أن ينزعا غرس الحب من قلبها قبل أن يقوى ويشند ، فكانت تعرض عنهما وتعيد أبداً كلمتها الأولى : هذا هو زوجي .
مر على هذه الامة عشرون يوماً لم تفارق فيها الامة الضابط ولم تعد تجول كما كانت تجول ولم تعد تفكر في شيء ... وكان الناس يتسائلون عن صلة هذا الاقربى الكافر بأسرة شتيوى ، فاذا قيل لهم : إنه مريض وإنهم يعالجونه . انصرفوا إلى أعمالهم ساخرين .

وصحبا الضابط وذكر كيف خرج يصيد فجرة الصيد إلى هذه القرية ، وكيف زلت قدمه فوق من ذروة الصخرة ، وأحس بالدم الحار يسيل على عنقه ، ثم لم يعد يذكر شيئاً ... إلا أنه فزع عينيه فوجد على عيني فتاة جميلة ، حسبها في الوهلة الأولى ، عيني زوجته الفاتنتين الزرقاوين ، وأنه وجد نفسه على سرير نظيف محاطاً بالمنايا والعطف ، وأنه لبث ينظر إلى الفتاة في صمت وخشوع وشكر أن نظرات طويلة ، ثم مدبده إلى يدها الرخصة اللينة فاخذها إلى فيه ، ليخط عليها أول كلمة من القسيمة التي تضطرم بها قلبه ، قصيدة الشكر للجميل ، والشوق للجمال ، وأن الفتاة لازمت به بعد ذلك ملازمة الظل ، وحرصت على سروره وهنائه ، فكانت تحبب له أطيب الاحاديث البدوية وألذها ، فكان يحببها بعنا ، ومشقة ، لضيق العرية عليه ، ويصجزه أن يأتي بالكلمة المناسبة فيأتي بها بالألمانية ففهمها الفتاة وهي لا تعرف من الألمانية كلمة ، كانما هي في قلبه ، أو كأنما هو - وذلك اصح - في قلبها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتجاوز في رأيه صلة المجاملة والمتعة بالجمال

أما الفتاة المتفتحة للحب فقد كانت ترى في هذا كله علامة على الحب الصادق الذي كانت تتوق إليه وتحلم به . وقد ابغى لها الضابط شتى المعاذير في هذا الموقف حينما أخبره به الشيخ شتيوى ، وأعطاهما كل الحق في أن تحب . أما أن تصر على اتخاذه زوجاً لها وهو الرجل الألماني المتزوج ، وهو الموظف الذي لم يبق من أجازته غير أسبوعين . فأمر مضحك لم يستطع برغم احترامه لشتيوى وشكره إياه إلا أن يثقله بقهقهة طويلة مجلجلة .

— ما هي جريرتي إذا هي قد أحببتني ؟ اني لم أشجعها على هذا الحب . ولم أقطع لها أى وعد بالزواج . وما وقفت منها إلا موقف الرجل المهذب الشاكر . ففسرت ذلك بأنه الحب ولكنه تألم إذ يصل إلى الفتاة التي حملت إليه البرء . والحب الألم واليأس . وجرب الأعراض والاساءة الباعلة للنساء . وتقطع